في عالم الكتب: نقد وتعريف

بعد الغروب

تأليف الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

للدكتور عبد القادر القط

هذه قصة للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله نشرت قبل هذا العام ثم أعاد نشرها نادى القصة منذ شهرين . وهى تصور أزمة عاطفية فى حياة شاب تخرج فى كلية الزراعة فمضى يبحث عن عمل . وانتهى به المطاف إلى أن يشتغل ناظر زراعة فى مزرعة يملكها أديب كبير . وكان المالك وابنته أميرة يزوران القرية لماما فيمضيان بها أياما أو أسابيع يعودان بعدها إلى القاهرة . وكذلك أحب الفتى أميرة حبا صامتا لم يرد أن يفصح عنه لأنه كان يرى نفسه أحقر من أن يتطلع إلى من كانت فى مثل ثرائها . ولكن خادمته زينب — وكانت بدورها تحبه حبا يائسا — تقرب بين الحبيبين حتى يتصارحا . ويعرف عبد العزيز — وهذا هو اسم الفتى — أن والد أميرة يريد أن يزوجها لابن عمها سامى فيستبد به الحزن ولكنه يحاول أن يعرف شعور أميرة نحو هذا الخطيب ويتكفل له بذلك صديقه صالح الذى يقيم فى القاهرة فيراقبها ويتتبعها وينتهى إلى أنها لا تحمل لابن عمها شيئا من الحب . وتعد أميرة بأن تحدث أباها فى الأمر ، ولكنها تتريث وتتردد حتى تجد أباها لجثة على فراش الموت يبارك بنظراته المعبرة زواجها من ابن عمها . وهكذا تجد أميرة نفسها مضطرة إلى أصطناع الانصراف عن عبد العزيز لأنه فقير . ويفترق الحبيبان .

والقصة كما نرى قصة « رومانسية » تصور سلسلة من التضحيات المفتعلة البعيدة عن واقع الحياة . فالأب يضحى بمستقبل ابنته فى سبيل الوفاء لأولاد أخيه ، والبنت يحبها فى سبيل الوفاء لذكرى أبيها وتحقيقا لرغبته وهو على فراش الموت ؛ وزينب تضحى بحبها لتسعد سيدتها فتجعل من نفسها رسولا بين العاشقين ؛ وصالح يبذل تضحية من نوع آخر فيكلف نفسه أن يراقب بيت أميرة فى إحدى الضواحى عدة أيام ليتابعها ويعلم مبلغ علاقتها بابن عمها ، حتى القصة القصيرة التى كتبها سيد المزبة ترمز إلى هذه المثالية المفرطة ، فبطلها العامل الفقير يضحى بحبه لتتزوج فتاته ثريا تنتفع أسرتها الفقيرة بثروته . وقد تحسن المثالية فى القصة إذا كانت ثورة على قيم زائفة وأوضاع خاطئة وصراعا بين عواطف سامية وأخرى وضيعة ، أما إن كانت استسلاما مطلقا لمشاعر بينة الانحراف فهى عيب لا شك فيه . فإغراق الأب فى الوفاء لأولاد أخيه على حساب ابنته عاطفة زائفة ، وتبرع زينب للتوفيق بين سيدتها وسيدها الذى تحبه هى نفسها شئ غريب ، وما صنعه صالح فى سبيل صديقه أمر يتنافى مع الكرامة والجد . وقل ذلك فى سائر التضحيات التى تحفل بها هذه القصة . وأبطال القصة بهذه المثالية الزائفة يتنكرون لإنسانيتهم ويذعنون لقضاء قيم باطلة تتحكم فى مصائرهم دون أن يكون هناك على الأقل صراع عنيف قد ينتهى بالفشل أو النجاح ، ولكنه فى كلتا الحالين يؤكد إنسانية الشخصية وبطلان هذه القيم سواء خرجت من الصراع منتصرة أو مخذولة

واختفاء الصراع القوى نتيجة لهذه الفضائل المفتعلة يفرض على المؤلف أن يختلق مبررا لكل عمل يجانب — فى رأيه — المثل الأعلى للسلوك الفاضل ؛ فأميرة تحب عبد العزيز وتنصرف عن ابن عمها لا لأنها أحست ميلا فطريا نحوه ، ولا لأنها إنسانة يمكن أن تتحول مشاعرها إذا ما لقيت رجلها المنشود ، لا … فإن ذلك لا يتسق مع العالم الفاضل الذى رسمه المؤلف إذن فليكن ابن عمها شابا « ألذ الأوقات التى يقضيها فى أربع وعشرين ساعة وقت يمضيه عند الحلاق أو فى الحمام أو واقفا أمام واجهة أحد المحال ليرى أكثر الألوان انسجاما على ذوى الوجوه البيض … يجيد التحدث عن الأفلام ويحفظ اسماء الممثلات

خاصة حتى لقد نظمت إحدى المجلات الأسبوعية مسابقة عويصة الموضوع فكان الفائز فيها . وكانت هذه المسابقة هي أن رسمت المجلة عشرة أزواج من عيون الممثلات بين غربيات ومصريات وكتبت في أعلى الصفحة « أتستطيع أن تعرفهن من عيونهن » وكان الأستاذ سامي هو الذي عرفهن جميعا بما له من عبقرية ... يمضغ الكلمة مرة أو مرتين قبل أن يتفضل بها عليك فيخرجها من فمه ثم يرسلها من بين شفتين تأخذ سفلاها وضعا وتأخذ عليا وضعا آخر عند مخرج الكلمة . يحرك عنقه بتقدير لأنه يخاف على بنيقة قميصه المنشاة أن تنكسر ، وعلى عقدة رباط العنق أن تتحول الخ » وهكذا يجد المؤلف عذرا لبطانه إذا ما انصرفت عن ابن عمها المخنث إلى الفتى الجاد المستقيم دون أن يمس ذلك ما ينبغي لها من عفة العواطف ومثالية الأحاسيس ، وهذا بعينه ما فعله السباعي في قصته « إني راحلة » حين وصف زوج بطلته بأفدع من هذا ليبرر فرارها منه إلى حبيبها . وإذا جاز للوالد في قصة السباعي أن يزوج ابنته لهذا المخنث سميا وراء الجاه والمال فكيف جاز للوالد في قصتنا هذه أن يرتكب هذا الإثم وهو الأديب الكبير والقصاص الخبير بدخائل النفوس ولم يكن له من وراء ذلك مغنم ؟ وكيف استباح أن يقول لابنته « إن سامي شاب لا أرى فيه ما يمنع أن يكون زوجا لك » وفيه تلك الخصال الذميمة التي وصمه بها المؤلف ! إن أية فتاة في موقف أميرة يمكن أن تحب أي فتى يعترض سبيلها مادام فيه شيء من رجولة تناقض ما في سامي من تخنث . وعندئذ يكون حبها فرارا من خطيب خلا من كل ما يجتذب المرأة لا استجابة لشعور طبيعي بأن في ذلك الرجل مقومات الرجولة المتمثلة في نفسها . وتلك عاطفة لا يمكن أن ترضى المحبوب ولا تتأصل في نفس المحب . لذلك خلت القصة من الصراع الجدي الذي يخلق من المواقف والمشكلات ما يعقد الأحداث ويرتفع بالأزمات النفسية إلى مستوى يتجاوب معه القارئ وينفعل به . فالقصة تمضي هادئة رتيبة ، انتظار من عبد العزيز لقدوم أميرة وأبيها إلى القرية ، ومناوشات عاطفية غامضة مكبوتة ، ثم رحيل مفاجئ إلى القاهرة ، ثم انتظار جديد من عبد العزيز ، ثم عودة من أميرة . والبطلان في كل ذلك لا يكادان يبذلان أية محاولة جدية للتغلب على ما في طريقهما من صعاب . ومن العجب أن تتخاذل أميرة وتستسلم لمصيرها المحتوم في مثل هذا الفتور وقد صورها المؤلف ذات شخصية قوية يهابها عمال المزرعة أكثر مما يهابون أباها

هذا عن شخصيات القصة وطابعها العام . أما بناؤها الفني وتسلسل حوادثها ففيها أيضا كثير من التكلف . وترتيب الوقائع كما يشتهي المؤلف لا كما يقتضي منطق الواقع وطبائع الأشياء . وأضرب لذلك مثلين : الأول حين يكتب عبد العزيز إلى صديقه صالح في القاهرة يطلب إليه أن يراقب أميرة ليعرف مدى علاقتها بابن عمها سامي . ودعك مما في هذا الطلب من غرابة ومما في استجابة الصديق له من تبذل ، وانظر كيف تفي لصالح أن يعرف أن أميرة تحب صديقه عبد العزيز . لقد انتظر أمام بيتها عدة أيام دون طائل ثم أسعفه الحظ فرآها خارجة مع أختها الصغيرة . وتسأل الصغيرة عن سر نزولهم إلى القاهرة بلا سيارة فتجيبها : أتعتقدين أنه من الضروري أن يركب كل الناس سيارة خاصة .. سنركب القطار والترام . ونفهم من هذا الحوار أن هذه كانت أول مرة تخرج الفتاتان فيها بلا سيارة ، لا لشيء إلا ليتيح المؤلف لصالح أن يتبعهما . ثم تدخل الفتاة مسكنا في الطبقة الأولى من إحدى العمارات عرف صالح أن ساكنه يحترف قراءة الكف . وهكذا يقتضي تلفيق الحوادث مرة أخرى أن تختار الفتاة هذا اليوم من بين الأيام جميعا لتستشير العراف في أزمتها العاطفية وأن يكون مسكنه في الطابق الأول حتى لا يتكلف المطارد من أمره عسرا .. ! ثم تدخل السينما فيوفق الحظ « صالح » فيجلس بالقرب منها ثم تكون المفاجأة الأخيرة حين تصور القصة على الشاشة مأساة عبد العزيز وأميرة ،

ويلتفت صالح فإذا هي تكفكف دمعها بمنديلها الأبيض فهي إذن تحب صديقه عبد العزيز !

أما المثال الثاني فحين يستشير عبد العزيز صديقه صالح « قاموس الحب » ماذا يفعل حتى تصرح أميرة بحبها له فيشير عليه بأن يثير غيرتها ، ودعك من سذاجة هذه النصيحة وانظر كيف رتب المؤلف الحوادث بعد ذلك . تقدم أميرة إلى العزبة في إحدى زياراتها المتقطعة ، ولأول مرة نرى بصحبتها صديقة « مرحة طائشة ذات ضحكة ناعمة ، وصنوعة الزينة الخ ... » ويفهم القارئ بلا عناء أن المؤلف قد ساق هذه الفتاة إلى القرية وصنعها بهذه الصورة ليطبق عليها عبد العزيز الدرس الذي تلقاه من صديقه . وهكذا كان ... وفي لمحات خاطفة اشتبك الإثنان في غزل صريح مكشوف دون مقدمات لينتهي المؤلف من غايته سريعا فيثير غيرة أميرة . وقد كان المؤلف يستطيع ألا يقدم لهذه التجربة بتلك النصيحة من صالح وكان يستطيع أن يصور الزائرة طيبة متزنة وكان طبيعيا حينئذ أن يحتفي بها عبد العزيز إكراما لها كزائرة وأن تضيق صاحبته بهذه الحفاوة فيفطن إلى هذه الحقيقة النفسية البسيطة ويمضي في استغلالها ، ويكون الموقف عندئذ من واقع الحياة . لا من « القاموس »

وبمناسبة الحديث عن القاموس نحب أن نقول كلمة قصيرة عن لغة القصة وأسلوبها ؛ فالمؤلف حريص أشد الحرص على الأسلوب العربي الرصين الذي لا يتلون كثيرا باختلاف المواقف والأشخاص . وهو يفضل الحوار العربي على العامي ولو كان الأخير أقدر على تصوير الشخصية أو الموقف . وقد يكون في هذا مجال لاختلاف وجهات النظر ولكني لا أستطيع أن أقره على استعمال « المحط » مثلا بدل « المحطة » تلك الكلمة الحية المألوفة . وإذا كانت لغتنا الأدبية غير قادرة على التطور الذي يبعث من استعمال اللغة في الحديث فلا أقل من أن تتيح لها التطور على أقلام كتابها . وفي القياس متدوحة عن هذا التزمت فكلمة المحطة لها نظائر في اللغة كالمنزلة والمنزل بمعنى مكان النزول وسلطان الثقافة العربية القديمة واضح كل الوضوح في صور المؤلف وتشبيهاته ، فهو يقول مثلا إنه قبل عنق صاحبته « فكأنما قبل عاجا دافئا » ! ترى لو قبل المؤلف قطعة دافئة من سن الفيل أكان يستعذب هذه القبلة ! إن التشبيه أداة فعالة في يد الروائي تغنيه في كثير من الأحيان عن الوصف المطول والتحليل المبسوط وخير له إذا لم يوفق إلى تشبيه معبر طريف ألا يلجأ إلى الصور التقليدية التي لا معنى لها ، خاصة أن تشبيه العرب الجلد بالعاج كان يقصد به دائما اللون لا الملمس

بقيت كلمة قصيرة أخرى عن نهاية القصة فإن بها شيئا من الغموض . فالبطل يقص علينا أنه نشر قصة حبه فلما قرأتها أميرة جاءت تفسر موقفها وتعتذر عن زواجها من ابن عمها . والقصة التي بين أيدينا هي قصة حبه كذلك فهل هي طبعة ثانية من القصة الأولى أضيفت إليها الخاتمة !

عبد القادر القط

بنك مصر

أسس شركاته الكبرى التي وظف بها خصائص البلاد واستغل مرافقها فإذا بها الدعائم التي قام عليها نشاط التصنيع القومي في مصر وكانت السياج المنيع للتحرر الاقتصادي منذ ٣٢ عاما فدل على الكفاية المصرية وتفوق المصريين في مضمار الحياة العملية